مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الرابع ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــداد

١٤٠٩هـ = ١٩٨٨م

حقيقة اللغة ومفرداتها

الدكتور عدنان محمد سلمان
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

ذهب المعجميون العرب الى أن لفظة (اللغة) مشقة من (اللغو) (١) ، وهو : النطق (٢) ، وأن أصلها من حيث التصرف هو (لَغْوَة) على وزن (فَعْلَة)(٣) ، حذف لامها حذفاً اعتباطياً ؛ لأنّ هذا الحذف ليس مبنيّاً على قياس ، وليست له علّة صرفية أو نحوية ، وقد جاء مثل هذا الحذف في قسم من الألفاظ العربية ، مثل : كرَةٍ وقُلَةٍ وثبةٍ ، فقد حذفت لامات هذه الالفاظ وعوّض عنها بالتاء في آخرها(٤) . ويسمي اللغويون هذه الألفاظ ألفاظاً ناقصة (٥) ، اذ لم تستوف ما تستحقه من عدة بنيتها ، فجاءت ناقصة اللام . وعلى هذا يكون وزنها التصريفي هو : (فُعَة) .

وقد ترجح عندى ان لفظة (اللغة) ليست من الالفاظ العربية الموغلة في القدم ، فهي ليست من الألفاظ القرآنية ، ولا من الفاظ الشعر الجاهلي ، اذ لم أعثر على بيت جاهلي وردت فيه هذه اللفظة ، مع كثرة التتبع والاستقراء ، وقد استعنت بأناس من ذوى الدراية بالشعر الجاهلي ، لعلّهم يلتقطون لي بيتاً واحداً وردت فيه هذه فلم يتمكنوا من ذلك .

---

(١) انظر مادة (لغو) في كتاب العين ٤٤٩/٤ ، ومجمل اللغة ٨١٠/٣ . ، واللسان (لغا) ، وتاج العروس (لغا) .
(٢) الجمهرة ٢٦٤/٣ ، اللسان (لغا) .
(٣) الخصائص ٣٣/١ ، اللسان (لغا) .
(٤) الخصائص ٣٣/١ . وانظر شرح مختصر العزى ٢٥ ، اللسان (لغا) .
(٥) الجمهرة ٥٠٩/٣ ، اللسان (لغا) .

والناظر في القرآن الكريم والشعر العربي القديم يرى ألفاظاً كثيرة تشارك مفردة اللغة في جذرها اللغوي ، وتلتقي معها في الدلالة على النطق ، مثل : الغوا ، ولاغية ، وتلغى ، ولغوى وملغاة ، من ذلك مثلاً قوله تعالى : (وقال الّذين كفَروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه) (٦) ، وقوله (في جَنّةٍ عاليةٍ ، لا تَسمَعُ فيها لاغيَةً) (٧)،وقول الشاعر الجاهلي (٨) :

باكرته قَبل أن تلغى عَصافِره مستخفياً صاحبي وغيرُهُ الخافي

ومادة (اللغو) ، التي هي الأصل الاشتقاقي لمفردة (اللغة) ، قد وردت في في القرآن الكريم والشعر الجاهلي ، من ذلك قوله تعالى : (لايَسْمعُون فيها لَغْواً ولا تأثيماً) (٩) ، وقول الشاعر (١٠) .

باكرتهم بسباء جون ذارع قبلَ الصباح وقبلَ لَغْوِ الطّائرِ

وأقدم نص تراثي وردت فيه مفردة (اللغة) ، هو الحديث النبوي الشريف . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لم يبعث الله نبياً إلا بلغة قومه » (١١) .

أما القرآن الكريم ، فقد عُبِّر فيه عن مفهوم اللغة بلفظة (المنطق)في آية واحدة ، وهي قوله تعالى : (ياأيّها النّاسُ عُلِّمنْا مَنْطِقَ الطَّيرِ)(١٢) ، وعبر عن مفهومها أيضاً فيه بلفظة (اللسان) . وقد تكرر ذلك ، ومنه قوله تعالى : (وما أَرْسَلْنا مِنْ رسول الا بلسان قومه) (١٣) ، وقوله :

---

(٦) فصلت ٢٦ ، وانظر كتاب العين ٤٤٩/٤ .
(٧) الغاشية ١١ .
(٨) هو عبد المسيح بن عسلة . انظر المفضليات ٢٨٠ .
(٩) الواقعة ٢٥ .
(١٠) هو ثعلبة بن صعير ، جاهلي قديم ، انظر المفضليات ولسان العرب (لغا).
(١١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى/مادة (لغا) ١٣٠/٦ .
(١٢) النحل ١٦ .
(١٣) ابراهيم ٤ .

(لسانُ الّذي يُلْحِدونَ إليه أعجميّ ، وهذا لسان عربيٌّ مبينٌ) (١٤) ، وقوله : (ومن آياته خَلْقُ السَّموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) (١٥) ،

وتكرر مجيء (اللسان) بمعنى (اللغة) في الحديث ، من ذلك : (فاكتُبُوها بلسانِ قُرَيْش) ، و(طلاُق كلّ قوم بلسانهم) ، و(ألسنتهم ألْسِنَةُ العرب) ، و « إن الله يعلم الألسنة كلّها » (١٦) .

واستعمال (اللسان) بمعنى (اللغة) استعمال مجازى ، لأنه في الأصل موضوع للدلالة على العضو المعروف الذّي هو آلة النطق والكلام .

وقد تصرفت العرب بلفظة (اللسان) فكنوا بها عن الكلمة أو الرسالة ، من ذلك قول أعشى باهلة (١٧) :

إنّي أتَتْني لِسان لا أُسرُّ بها

ومثله قول الأخر (١٨) :

أتَتْني لسانُ بني عامر

وقد يعبّرون بها عن (الكلام) من ذلك قول الحطيأة (١٩) :

ندمت على لسان فات مني فلَيْت بأنه في جوفِ عَكْم

واشتقوا من (اللسان) ألفاظاً ، أسماءاً وأفعالاً ، وكلها تدل على الكلام ،

---

(١٤) النحل ١٠٣ .
(١٥) الروم ٢٢ .
(١٦) انظر هذه الاحاديث في المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي مادة (لسن) ١١٦/٦ ـ ١١٧ .
(١٧) اللسان (لسن) .
(١٨) المصدر نفسه .
(١٩) المصدر نفسه .

فقالوا مثلاً : فلانٌ لَسِن بيِّن اللَّسَن ، اذا كان ذا بيان وفصاحة(٢٠) . وجاء في حديث عمر (رضى الله عنه) : انه وصف امرأة ، فقال ، (إنْ دَخلَتْ عليك لَسَنَتْكَ » ، أي : أخذتك بلسانها ، يصفها بالسلاطة وكثرة الكلام (٢١) .

ويبدو لي أن استعمال (اللسان) للدلالة على ما تدل عليه مفردة (اللغة) أمر شائع في كثير من اللغات المعروفة ، فقد جاءت في الانكليزية مثلاً – لفظة « Tongue » ، ومعناها اللسان مرادفة ، للفظة (Languaje) التي معناها (اللغة) . ووقع مثل هذا الاستعمال في الفرنسية والألمانية والروسية والكردية والتركية .

وجاء في العبرية استعمال (الشفة) بمعنى (اللغة) (٢٢) ، وهو استعمال مجازى أيضاً . وورد في العربية شيء قريب من ذلك ، اذ اشتقت العرب من (الشفة) ألفاظاً تتّصل بالكلام الذي هو جوهر اللغة ، فقالوا شافهته مشافهة ، وقالوا : شفهي وشفوى (٢٣) . وجاء في كلامهم : إن شَفَة الناس عليك لحسنة ، ويعنون بالشَّفَة هنا الثَناء (٢٤) ، وهو إنّما يكون بالكلام والحديث ، لفظاً أو كتابةً ، و(اللغة) في حقيقة أمرها لاتعدو هذين الأمرين .

وبقي استعمال (اللسان) في العربية بمعنى (اللغة) دارجاً على ألْسِنة أهلها وأقلام علمائها ، فقد سمّى ابن منظور معجمه (لسان العرب) ،

---

(٢٠) المصدر نفسه .
(٢١) المصدر نفسه [المجلة : وفي القاموس المحيط : « ولسنه : أخذه بلسانه، وغلبه في الملاسنة للمناطقة » ولم يذكر « السلاطة »] .
(٢٢) قاموس عبرى – عربي ٩٧١ ، وانظر معجم جيب/انكليزى – عربي ، وعبري – عربي ٣٠٣ .
(٢٣) اللسان (شفة وشفي) .
(٢٤) اللسان (شفه) .

وهو يعني بلا ريب (لغةَ العرب) ولكن الذي ساد في مختلف عصور العربية هو مفردة (اللغة) ، ولاَ سيما في الدلالة الاصطلاحية ، وتجرى الآن محاوت لتسيير مصطلحات مأخوذة من مادة (اللسان) ، مثل : اللسانيات والألسنية ، وهي مصطلحات ليست ببعيدة عن جوهر اللغة ومضمونها .

وقد استقرت مفردة (اللغة) وغدت منذ قرون كثيرة هي اللفظة المستعملة عند العرب عامتهم ، وخاصتهم ، وأصبحت عُنواناً ينضوي تحته كلّ ما ينطق به اللسان العربي من ألفاظ لها معانٍ ، مفردة أومركبة ، وارتبطت هذه اللفظة من حيث المضمون بعلم دراسة العربيةً ، فصار (علم اللغة) و (فقه اللغة) من علومها التي اشتغل بها علماء الأمة درساً وتأليفاً ، ومن ثَمّ صارت (اللغة) من المصطلحات العلمية التي حرص العلماء على أن يَضَعُوا لها الحدود التي تكشف عن مدلولها .

ويترجح عندى أن أول من وضع لها حداً ، هو ابن جِنّي المتوفى سنة (٣٩٢) هـ ، حيث قال ، « أمّا حدها ، فإنّها أصوات يعبّر بها كل قوم عن اغراضهم »(٢٥) . وهذا لاينطبق على العربية وحدَها ، بل يشمل كل اللغات ، وقد نص ابن سِيده على هذا الشمول ، فوصف هذا الحدّ بأنه : « عام لجميع اللغات ، لأن الحد طبيعيّ » ، ولأنّه « حد دائر على محدوده ، محيط به لا يلحقه خلل ،اذْ كل صوت يعّبر به عن المتصور في النفس لغة ، وكل لغة فهي صوت يعبر به عن المعنى المتصور في النفس » (٢٦) .

وقد ترجح عندى أن الفارابي الفيلسوف المتوفى سنة (٣٣٩ هـ) قد سبق ابن جِنّي في التوصل الى الربط بين اللغة والأصوات ، وأنه هو الذي مهّد له السبيل ، ليضع هذا الحدّ الدقيق للغة ، حيث نص على أن الإنسان

(٢٥) الخصائص ١/٣٣ .
(٢٦) المخصص ١/٦ .

اذا « احتاج أن يعرف غيره ما في ضميره ، أو مقصودة بضميره ، استعمل الإشارة أولاً في الدلالة على ما كان يُريد ممن يلتمس تفهيمه اذا كان من يلتمس تفهيمه بحيث يُبصر إشارته ، ثم استعمل التصويت ، وأوّل التّصويتّات النداء ، فإنه بهذا ينتبه من يلتمس تفهيمه أنه هو المقصود بالتفهيم ، لا من سواه ، وذلك حين ما يقتصر في الدلالة على ما في ضميره بالإشارة الى المحسوسات ، ثم من بعد ذلك يستعمل تصويتات مختلفة ، يدّل بواحد واحد منها على واحد واحد ممّا يدل عليه بالإ شارة اليه والى محسوساته ، فيجعل لكل مشار اليه محدود تصويتاً مّا محدوداً لايستعمل ذلك التصويت في غيره » (٢٧) .

وتناول علماء أصول الفقه حد اللغة لصلتها الوثيقة بعلوم الشريعة ، فهي عندهم من علوم الآلة ، لأنها اداة التعبير ، وفهم النصوص الشرعية من قرآن وسنة متوقف على فهم لغة تلك النصوص وكان ابن حزم الاندلسي المتوفّى سنة (٤٥٦هـ) – وهو أحد علماءأصول الفقه – من جملة الذين وضعوا للغة حدّاً ، حيث قال : « اللغة ألفاظ يعبر بها عن المسميات وعن المعاني المراد إفهامها » (٢٨) . وهذا الحدّ ، لا يخرج في مضمونه عن حد ابن جِنّي ، لأن الألفاظ – كما يقول الآمِدي – وهو أيضاً من علماء الأصول – إنما تحدث من اختلاف تركيبات المقاطع الصوتية (٢٩) .

وظل حد ابن جِنّي للغة هو الحد المعوّل عليه عند علماء العربية وغيرهم (٣٠) ، لأ نه حدّ جامع مانع ، جاء بعبارة وجيزة ، دلّت على طبيعة اللغة ووظيفتها ، وميّزتها من غيرها من الدوالّ ، كالاشارة والخط والرسوم

(٢٧) كتاب الحروف ١٣٦ .
(٢٨) الاحكام في اصول الاحكام لابن حزم ٤٦/١ .
(٢٩) الاحكام في اصول الاحكام للأمدي ١٦/١ .
(٣٠) اللسان (لغا) .

والرموز التي استعملها الأنسان للتعبير عن أغراضه المختلفة (٣١) .

والأصل في لفظة (اللغة) في العربية أنها تدلّ على لغة العرب الموحّدة المختارة ، ولكن أصبح لها مدلول ثانٍ إبّانَ عصر التدوين ، فصارت تطلق أيضاً على لغات العرب الفرعية التي تختلف شيئاً مّا عن اللغة الموحدة ، ومن هنا صرنا نجد في كتب العربية لغات منسوبة الى قبائل أو اقاليم أو مدن معينة ، مثل : لغة الحجاز ، ولغة قُرَيْش ، ولغة تَميم ، ولغة نَجْد ، ولغة هُذَيْل . ولغة أهل المدينة ، ولغة أهل البصرة ، ولغة أهل الكوفة ولعل أول من استعمل هذا الاصطلاح هو أبو عمرو بن العلاء المتوفّى سنة (١٥٤ هـ) . فقد قيل له ، أخبرنا عما وضعت مما سميته عربية أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ فقال ، لا » ، فقيل له ، « كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ » قال ، « أعمل على الكثير ، وأسمي ماخالفني لغات » (٣٢) .

وقد سار علماء العربية على هدى ما أصّلَهَ أبو عمرو بن العلاء ، فوجدناهم يطلقون لفظة (لغة) على ما جاء خارجاً عن جمهور كلام العرب وقد ينسبون هذه اللغة الى قبيل معين من العرب ، وقد لا ينسبونها (٣٣) .

وسعى علماء العربية الى تقويم لغـــات القبائل والأمصار ، فوصفوا قسماً منها بأنها جيّدة . أو كثيرة . ووصفوا أخرى بأنها ضعيفة ، أو رديئة ، أو رديئة جدّاً . أو قليلة (٣٤) . بل ربما سمّوا بعضها (لُغَيَّة) (٣٥) على سبيل التصغير ، وذلك لقلّتها وندرتها .

(٣١) البيان والتبيين ٧٦/١ . والمغني لابن فلاح م ٢٢/٢ .
(٣٢) طبقات النحويين واللغويين ٣٩ .
(٣٣) انظر الكتاب ٣/٢ ، ١٩١ ، ٢٧٧ ، ٢٨٧ ، ٣١٣ ، ٣٦١ .
(٣٤) انظر الكتاب ٥٠/٢ ، ٥١ ، ٢٨٧ ، ٢٩٤ ، ٣٥٨ ، ٣٧٠ ، ٣٨٢ .
(٣٥) الانصاف في مسائل الخلاف ٣٩٢/١ ، واوضح المسالك الى الفية ابن مالك ٢٣٨/١ .

وقد استحدثت في عصرنا هذا لفظة حلّت محلّ (اللغة) الفرعية ، وهي مفردة (اللهجة) ، فصرنا نقرأ في الكتب اللغوية الحديثة ، مثل : لهجة تميم ، ولهجة هُذيل ، ولهجة الحِجاز ، وعلماء العربية المتقدمون منهم والمتأخّرون ، لم يعرفوا هذا الاستعمال ، فضلا عن أن المعجمات العربية الأصلية لم يرد فيها هذا المعنى الحديث لمفردة (اللهجة) ، فهو معنى مولّد شاع في المؤلّفات الحديثة ، ثم استقرّ استعماله واستحكم .

وما نسميه الآن (لهجة) ، يدخل ضمن حدّ (اللغة) ، لأنّ اللهجة مهما اختلفت عن اللغة الأم في بعض من المفردات والتراكيب والأساليب ، لا تَعدو أنْ تكون ألفاظاً بسيطة ومركبة ، وأصل هذه الألفاظ اصوات متآلفة وضعت ليعبر بها الإنسان عن أغراضه ، وهذا هومفهوم اللغة وحدّها .

فاللغة – أعني أيّ لغة – لا تخرج عن كونها أصواتاً ، واختلافُ اللغات في عامّته منحصر في طرق تأليف المفردات من هذه الأصوات ، وفي اختلاف أساليب تركيب هذه المفردات في الكلام ففي العربية مثلاً يصح تقديم الاسم على الفعل المبنيّ عليه ، كما يصح تقديم الفعل على الاسم فيجوز أن نبدأ الكلام بالاسم ، فنقول مثلاً : الرجل ذهب ، ويجوز أيضاً أن نبدأه بالفعل ، فنقول : ذهب الرجل ، أما في الانكليزية ، فيجب تقديم الاسم على الفعل ، فلا يصح الا أن يقال : « The man Went »

فاختلاف اللغات اذن ، غير قائم في غالب الأمر على اختلاف المادة الصوتية التي تتألف منها المفردات اللغوية في اللغات الإنسانية المختلفة ، وذلك لأن جُلّ هذه الأصوات مشترك بينها . فلو انعمنا النظر في المادة الصوتية التي تتألف منها مفردات اللغات الإنسانية ، لوجدنا هذه المفردات مؤلفة من أصوات متشابهة في غالب الأمر والاختلاف بينها في هذا الأمر

يسير ، فقد توجد أصوات في لغة ، وهي غير موجودة في لغة أخرى ، ولنأخذ مثلاً على ذلك العربية والانكليزية ، فجُلّ أصوات أبجديتهما مشترك مثل : السين والباء والتاء والنون واللام والكاف والميم والراء والهمزة والألف والواو والياء وغير ذلك من الأصوات وما فيهما من اختلاف فهو يسير ، فمثلاً : الخاء ، والحاء ، والقاف ، والعين ، غير موجودة في الإنكليزية ، وهي موجودة في العربية . ويقابل هذا وجود مثل هذه الأصوات (P. V. ch.) في الانكليزية ، وانتفاؤها من العربية الفصحى وهذا الاختلاف وقع جُزافاً ، ولا علاقة له بطبيعة جهاز النطق في أصل التركيب الخلقي ، عند كل من الفريقين ، لأن كلاً من الناطقين بالعربية أو الانكليزية أصالة ، يستطيع بالتدريب والمران أن يلفظ الأصوات غير المستعملة في لغته لأن أجزاء آلة النطق عند جميع الخلق واحدة ، فضلاً عن أن العمليات الذهنية والعضوية المرتبطة بإصدار الأصوات اللغوية تجري على نمط متشابه عندهم ايضاً . فالانسان قادر على أن يلفظ أي صوت غير وارد في أصوات لغتِه الأصلية ، لما أعطي من قدرة على محاكاة الذين يختلط بهم ،ولاسيما اذا ماطالت مدة الاختلاط وقد تنبه الى شيء من هذا (الجاحظ) ، فقال : (إنا نجد الحاكية من الناس يحكي ألفاظ سكان (اليَمَن) مع مخارج كلامهم ، لايغادر من ذلك شيئاً ، كذلك تكون حكايته للخراساني والأهوازى والسّنْدى والأحباش . وغير ذلك . نعم . حتى تجده أطبع منهم) (٣٦) ثمّ قال : « وإنما تهيأ وأمكن الحاكية لجميع مخارج الامم ،لما أعطي الإنسان من الاستطاعة والتمكين . وحين فضله على جميع الحيوان بالمنطق والعقل والاستطاعة . فبطول استعمال التكلف . ذلّت جوارحه لذلك »(٣٧) .

ولكن الانسان – كما يقول – (متى ترك شمائله على حالها ، ولسانه على سجيته . كان مقصوراً بعادة المنشأ على الشكل الذي لم يزل فيه . .. ألا ترى

(٣٦) الحيوان ٦٩/١ . (٣٧) المصدر نفسه .

أن السّنِدي اذا جلب كبيراً ، فانه لا يستطيع الا أن يجعل الجيم زاياً ، ولو أقام في عليا تَميم وفي سُفلى قَيْس ، وبين عَجُز هَوازِن ، خمسين عاماً . وكذلك النبطي القُحّ خلاف المغلاق الذي نشأ في بلاد النبط ، لأن النبطيّ القُحّ يجعل الزّاي سيناً ، فاذا أراد ان يقول : زورق ، قال : : سورق ، ويجعل العين همزة ، فاذا أراد أن يقول ، مشمعل ، قال : مشمئل . والنخاس يمتحن لسان الجارية اذا ظن أنّها روميّة ، وأهلها يزعمون أنها مولدة ، بأن تقول : « ناعمة » (٣٨) ، لأنها اذا كانت رومية ستقول : « نائمة » ، اذ لا تستطيع أن تلفظ العين ، فتقلبها همزة .

والامم يتأثر بعضها ببعض ، ويسرى الى أي أمة شيء مما عند الأمم الأخرى التي تختلط بها ، ومن هنا وجدنا قسماً من الاصوات الشائعة في غير العربية ، قد انتقلت الى العرب منذ زمن بعيد ، بسبب الجوار أو الاحتكاك ، فقد ذكر سيبويه أن هناك أصواتاً غير مستحسنة ربما نطق بها قسم من العرب ، مثل : الجيم التي كالشين ، والباء التي كالفاء ، والكاف التي بين الجيم والكاف (٣٩) ، وهذه الأصوات شائعة بين كثير من لغات الأمم الأعجمية التي اختلط العرب بها قبل الإسلام وبعده ، ومن ثَمّ انتقلت الى لسان قسم من العرب ، ولا سيما العامّة منهم ، أما خاصة العرب ، فقد نفروا هذه الأصوات من لغتهم . ومن هنا جاء وصف سيبويه لها بأنها « رديئة ، وغير مستحسنة ، ولا كثيرة في لغة من ترضى عربيته ، ولا تستحسن في قراءة القرآن ، ولا في الشعر» (٤٠) .

(٣٨) المصدر نفسه ١/٧٠ ـ ٧١ .
(٣٩) الكتاب ٢/٤٠٤ .
(٤٠) الكتاب ٢/٤٠٤ .

وقد حذا ابن جنّي حَذْوَ سيبويه ، فتحدث عن هذه الأصوات ، ووصفها بأنها مستقبحة ، وأنها لا توجد إلا في لغة ضعيفة مرذولة ، غير متقبلة (٤١) . وقد نص كل منهما على أن هذه الأصوات لا تعرف الا بالسمع والمشافهة (٤٢) ، وذلك لأنها ليست من الأصوات التي تواضع العرب على أن يضعوا لها رموزاً كتابية ، على حد الرموز التي وضعوها لأصواتهم ، التي نقلوا بها كلامهم ، من ألفاظ منطوقة الى أوضاع مرسومة ، على وَفْقِ أسلوب خاص بهم ، يفرق خطهم من خطوط غيرهم من الأمم .

وقد توصل الإنسان منذ أمد بعيد الى نقل الأصوات اللغوية من أصوات منطوقة الى رموز مرئية ومقروءة ، فوضعت كل أمة رمزاً كتابياً لكل صوت من أصواتها اللغوية ، وكان لهذا الأمر اكبر الأثر في نموّ الحضارات الانسانية ، وحفظها ، ونقلها من أمة الى أمة ، (٤٣) فكان القلم الذي هو رمز الكتابة من أعظم نعم الله على البشر . ومن هنا جاء تمجيده في القرآن الكريم ، فأقسم الله تعالى به ، فقال : (ن . والقَلَم وما يسطُرون) (٤٤) ، وكانت القراءة التي هي ثمرة القلم من منن الله العظيمة التي أنعم بها على الانسان . ومن هنا كان أول ما نزل من القرآن على نبينا محمد ، صلّى الله عليه وسلّم ، قوله تعالى : (إقرأ باسم ربك الذي خَلَقَ . خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ . إقْرَأْ وربُكَ الأَكْرَمُ الذي عَلَّم بالقَلَم) (٤٥) .

لقد أصبحت الكتابة سمةً من سِمات الإنسان ، التي تميّزه من غيره من أجناس الكائنات التي تشاركه في طبيعته الحيوانية ، فصارت رديفة النطق

(٤١) سر صناعة الاعراب ٥١/١ .
(٤٢) الكتاب ٤٠٤/٢ ، سر صناعة الاعراب ٥١/١ .
(٤٣) الحيوان ٤٧/١ ــ ٤٨ ، كتاب الحروف ١٤٤ .
(٤٤) القلم ١ ، وانظر الحيوان ٤٨/١ .
(٤٥) العلق ١ ــ ٤ .

فيما يميّز الإنسان من غيره من الحيوانات ، إلا أن الكتابة قائمة على التطبع ، أما النطق فهو جزء من طبيعة الإنسان الذاتية ، فكل إنسان ناطق بأصل خلقته التي تضم جهاز النطق المهيأ لإصدار الأصوات بصورة ارادية وغير ارادية ، وبقصد أو بغير قصد ، كالأصوات الصادرة عن الناس في حالات ردّ الفعل عند الفزع والخوف ، فغالباً مّا تكون هذه الأصوات غير إراديّة ، بخلاف الكلام ، فهو قائم على القصد والإرادة ، في جلّ الأمر وعامته .

وقد أسهم تدوين اللغة في حفظها واستقرارها ونقلها من طبقة الى طبقة ، ومن أمة الى أمة ، ومن مكان الى مكان آخر (٤٦) ، ولاسيما اذا ما ارتبطت اللغة بنصّ ديني ، وكان هذا الارتباط قائماً على البيان اللغوي الذي اتّسم به ذلك النص (٤٧) ، ومن هنا كان لارتباط العربية بالقرآن الكريم أكبر الأثر في حفظها واستقرارها وانتشارها .

واختلاف الرموز الكتابية بين الأمم المختلفة ، لا علاقة له باختلاف الأصوات اللغوية . فالاصوات غالباً مّا تكون متشابهة عند الأمم المختلفة ، وما وقع من اختلاف بينها في الرموز الدالّة على الأصوات ، أمر قائم على اصطلاح وقع ، أو تواضُع اتُّفق عليه عند أهل كل لغة (٤٨) ، في مرحلة من مراحل التطور الحضاري الذي مرّ به الناطقون باللغة . ومن المحال أن يتصور أن العقل قد اقتضى أن يختص كل صوت من أصوات اللغة بصورة معينة من صور الخط الذي جعلت أشكاله أمارات لأجراس الأصْوات المنطوقة (٤٩) .

واذا كانت الالفاظ دالّة على المعاني عن طريق النطق ، فإن الخط يدّل على المعاني بتصوير تلك الألفاظ على هيأة رسوم . وقد مكنت هذه الرسوم

(٤٦) كتاب الحروف ١٤٤ .
(٤٧) الطراز للعلوى ٣٣/١ .
(٤٨) الحيوان ٦٨/١ ، ٧١ .
(٤٩) اسرار البلاغة ٣٧٧ ـ ٣٧٨ .

الإنسان ، الذي لم يتهيأ له سماع الألفاظ ، من أن يفهمها ويدرك معانيها .

فالخط اذن هو أحد الدوالّ (٥٠) ، لأنه يقيم صور الألفاظ التي نطق بها الإنسان ، أو خطرت في ذهنه ، او طرقت سمعه .

لقد ارتبط الخط بالأصوات اللغوية ارتباط الدالّ بالمدلول ، اذْ جُعل لكل صوت رمز اختص به اختصاص الألفاظ بالمعاني الموضوعة لها . وهذا الاختصاص قائم على الاعتياط والمجازفة في كل من وضع الخط واللفظ ، إذ لا سبيل الى معرفة الحكمة من وضع رمزٍ مّا من رموز الخط ، دالاً على ما دلّ عليه من صوت اختص به دون سائر الأصوات اللغوية ، كما لا سبيل الى معرفة الحكمة من وضع أصول الألفاظ بإزاء المعاني الدالّة عليها .

فالخط إذنْ هو أداة من أدوات التعبير اللغوي ، وهو قسيم اللفظ في ذلك ، بل ربما كان إسهام الخط في هذا الباب أعظم من اسهام اللفظ ، لأنه أقدر منه على نقل أغراض الإنسان وأفكاره خلال الأزمنة والامنكة المتباعدة (٥١) ، ولاسيما قبل أن يتوصل الإنسان الى اكتشاف وسائل حديثة تسهم في نقل الأصوات من مكان الى مكان آخر ، وذلك ببثّها عن طريق الهواء ، أو تسجيلها على رقائق خاصّة .

وكان لتوصل الإنسان الى نقل اللغة من أصوات منطوقة الى رموز كتابية مقروءة ، أكبر الأثر في رقيّه وتقدمه ؛ لأن ذلك مكنه من أن ينتفع بكل تجارب الجنس البشري ، التي جاءتنا محفوظة على شكل مخطوطات أو نقوش ، دوّنها يراع الإنسان منذ أقدم العصور الى عصرنا هذا .

واختلاف الرموز الكتابية لأصوات اللغات المتباينة ، لا يعدّ نتيجة لازمة

---

(٥٠) البيان والتبيين ١/٧٦ .

(٥١) كتاب الحروف ١٤٤ .

لما وقع بين هذه اللغات من اختلاف في الألفاظ والتراكيب ؛ لأن اختصاص خطٍ مّا بلغةٍ مّا لم يقع ببسبب منطقي حتّم أن تختص أي لغة بالخط الذي تواضع أهلها عليه ، لأن أي لغة يمكن أن تدون بأي نَمَط من أنماط الرموز الكتابية المتداولة بين الامم . ومّما يؤكد هذا ، أننا مازلنا نرى لغات كثيرة ، قد استعارت رموزاً كتابية من لغات أخرى تختلف عنها في مفرداتها وتراكيبها ، ولهذه الاستعارة مسوغات ، ويأتي الدين والتفوق الحضاري في مقدمة تلك المسوّغات . ولعلّ خير مثال على ذلك انتشارُ الخط العربي بين كثير من الأمم الإسلامية في الماضي والحاضر .

واذا كانت اللغة – أي لغة كانت – إنما هي مفردات وتراكيب ، فان المادة الأصلية لهذه المفردات والتراكيب هي الأصوات اللغوية ؛ لأن الكلام الذي هو الجزء المتعارف من اللغة بين الناس ، انما هو أصوات متقطعة أو مترابطة ، ينطقها الإنسان للدلالة على ما يختلج في ذهنه من المعاني ، التي يريد أن يعبر عنها في محاورته من يشاركه في الخطاب .

فالصوت – كما يقول الجاحظ « هو آلة اللفظ ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع ، وبه يوجد التأليف ، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً ، الا بظهور الصوت ، ولا تكون الحروف كلاماً الا بالتقطيع والتأليف » (٥٢) .

فآلة التخاطب اذن ، هي الأصوات اللغوية ، واختيار هذه الأصوات ، لتكون آلة التفاهم بين الناس ، أمر قائم على حكمة بالغة . وقد عبر الرئيس ابن سينا عن هذه الحكمة فقال : « لمّا كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة الى المحاورة لاضطرارها الى المشاركة والمحاورة ، انبعثت الى اختراع شيء يتوصل به الى ذلك ... ولم يكن أخف من أن يكون فعلاً ، ولم يكن أخف

(٥٢) البيان والتبيين ١/٧٩ .

من أن يكون بالتصويت ، وخصوصاً والصوت لا يثبت ولا يستقر ولا يزدحم ، فتكون فيه مع خفته فائدة وجود الإعلام به ، مع فائدة انمحائه .. فمالت الطبيعة الى استعمال الصوت ، ووفّقت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معا ، ليدل بها على ما في النفس من أثر » (٥٣) .

فاللغة اذن ، هي اصوات مقطعة ، والصوت ـ كما يقول ابن منظور ـ جَرس (٥٤) . وهو « عَرَض يخرُجُ مع النفس مستطيلاً متصلاً ، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته » (٥٥)، و « تختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها » (٥٦) .

فالصوت المذكور في حدّ اللغة ، هو الصوت المعتمِد على أحد مخارج النطق ، لأنه مرتبط بالتعبير عن الأغراض الإنسانية ، فلا يدخل ضمنه كل صوت . لأن الصوت جنس يشمل صوت الإنسان وغير الإنسان (٥٧) ، كصوت الحيوان والأصوات المنبثقة عن الطبيعة . وقد يكون الصوت صادراً عن الإنسان نفسه ، أو يكون أثراً من آثاره ، ولكنه لا يدخل ضمن مفهوم اللغة . مثل قسم من الأصوات الصادرة عن الإنسان عند الراحة او الألم (٥٨) او الحزن أو الفرح . فالصراخ والعويل والبكاء والضحك والأنين ، أصوات لها مدلولات عرفية ، يفهمها الإنسان عند سماعها ، ولكنها لا تُعَدُّ جزءاً من اللغة . وكذلك الأصوات التي يحدثها الإنسان او غيره من الموجودات او المؤثرات الطبيعية . فالطرق على الباب صوت وله مدلول ، ولكنه لا يدخل

(٥٣) الشفاء ـ المنطق ـ العبارة ٢ .
(٥٤) اللسان (صوت) .
(٥٥) سر صناعة الاعراب ٦/١ .
(٥٦) المصدر نفسه .
(٥٧) اللسان (صوت) .
(٥٨) التفسير الكبير ١٨/١ .

ضمن مدلول اللغة الحقيقي ، ومثل ذلك صهيل الخيل وحفيف الشجر وصرير القلم ، وغيرها من الأصوات المسموعة المنبعثة من الطبيعة الحية او الجامدة ، المحيطة بالإنسان والمكتنفة حياته ، فكل هذه الأصوات لا تُعَدُّ جزءاً من مفهوم اللغة ، وان شاركت اللغة في كونها أصواتاً دالّة على معان ، يدركها الإنسان عند سماعه اياها .

والدوالّ في الوجود ، كثيرة ، وهي لا تنحصر بالأصوات أصلاً ، فقد تكون إشارات أو علامات منصوبة ، أو رموزاً مخطوطة ، أو صوراً مرسومة (٥٨ أ) ، وقد تكون تغيرات تطرأ على الإنسان في لونه أو شكله ، فتدّل على حالة من أحواله النفسية او الجسدية ، ولكنها لا تُعَدُّ في أيّ حال من الأحوال من الدلالات اللغوية ؛ لأن دلالتها طبيعية ، وليست دلالة وضعية (٥٩) ، والمعتبر هنا هو الدلالة الوضعية (٦٠) . فاللغة اذن تنحصر في الأصوات الصادرة عن جهاز النطق ، والموضوعة بإزاء معانٍ مفردة او مركبة ، تَواطَأ عليها الناطقون بها طبقةً بعد طبقة ، فلا يدخل ضمن مفهوم اللغة كل صوت صادر عن الإنسان ، ناهيك عن الأصوات الصادرة عن غير الإنسان ، كالأصوات المنبعثة عن الظواهر الطبيعية أو الحيوانات .

وربما يكون للصوت مدلول عرفي ارتبط بذهن الانسان ، ولكنه لا يدخل ضمن مفهوم الأصوات اللغوية ، كصوت جرس المدرسة ، أو صوت مِدْفَع الإفطار ، أو الأصوات المنبعثة من آلات التنبيه المنذرة بالخطر ، كهذه الأصوات ، لها مدلولات مرتبطة بالذهن مثل ارتباط الألفاظ اللغوية بمدلولاتها ، الا أنها لا تُعَدُّ جزءاً من اللغة في مفهومها الاصطلاحي ، وذلك لأن أصل اللغة ألفاظ موضوعة بازاء معانٍ ، وهذه الألفاظ التي تقوم عليها اللغة عبارة

(٥٨أ) المغني لابن فلاح م ٢/٢٢ .
(٥٩) التفسير الكبير ١/١٨ .
(٦٠) المغني لابن فلاح اليمني م ٢/٢٣ ـ ٢٤ .

عن أصوات مؤتلفة فيما بينها ، مشكلة وحدة صوتية متصلة زمنياً ، وموضوعة بازاء معنى معين (٦١) تواضع عليه أهل اللغة .

فمادة اللغة اذن قائمة على الأصوات ، ولكن ليس كل صوت لفظاً لغوياً دالاً على جزئية من جزئيات اللغة (٦٢) ، وإن دلّ على معنى من المعاني المتعارف عليها عند مختلف الأقوام .

والأصوات اللغوية وغير اللغوية ، مُحْدَثة ، فلابد لها من سبب ، أحدثَها . ويعزو الرئيس ابن سينا سبب حدوث الأصوات الى « تموج الهواء دفعة وبقوة وبسرعة من أي سبب كان » (٦٣) . ولهذا التموج علتان ، هما ؛ القرع والقلع ، والقرع هو « تقريب جِرْم مّا الى جِرْم مقاوم لمزاحمته تقريباً ، تتبعه مماسّة عنيفة لسرعة حركة التقريب وقوتها » (٦٤) . والقلع هو « تبعيد جِرْمٍ مّا عن جِرْم آخر ، مماسّ له منطبق أحدهما على الآخر ، تبعيداً ينقلع عن مماسّه انقلاعاً عنيفاً ، لسرعة حركة التبعيد » (٦٥) ، « وهذا القلع — كما يقول ابن سينا ايضاً — يتبعه صوت من غير أن يكون هنا قرع »(٦٦)

وابن سينا في حديثه هنا عن أسباب حدوث الأصوات ، لا يعني بذلك الأصوات اللغوية وحدَها ، بل يعني جميع الأصوات ، لغوية وغير لغوية . ولو لم يكن قصده ذلك ، لما ذكر (القلع) ؛ لانه لا علاقة له بالأصوات اللغوية ، فسببها منحصر بالقرع فقط ، ومن هنا وجدنا الفارابي المتوفى سنة (٣٣٩ هـ) ، وهو اسبق من ابن سينا ، لا يذكر القلع في حديثه عن أسباب حدوث أصوات اللغة ، بل يكتفي بذكر القرع وحَدَه (٦٧) .

والأصوات التي تعنينا في مجال اللغة ، هي الأصوات التي تأتلف منها

(٦١) المصدر نفسه م ٢/٢٢ .
(٦٢) اسباب حدوث الحروف ٨ .
(٦٣) المصدر نفسه .
(٦٤) المصدر نفسه .
(٦٥) المصدر نفسه .
(٦٦) المصدر نفسه .
(٦٧) كتاب الحروف ١٣٦ .

مفردات الكلام ، لأن الكلام انما هو وحدات مستقلة مؤتلفة فيما بينها، وكل وحدة من هذه الوحدات دالّة على معنى مرتسم في الذهن ، اقترنت به اقتران أي دالّ بمدلوله ، وهذه الوَحَدات مؤلفة من أصوات تنطلق من جهاز النطق على وَفْقِ الإيعازات التي يصدرها الذهن بسرعة تنسجم مع الرغبة في طريقة التعبير ، وبكيفية تتلاءم والغرض الذي يريد الناطق أن يعبّر عنه .

ولما كانت الأصوات اللغوية تخرج من الفم ، وكأنها قد رميت منه رمياً ، أطلق على هذه الأصوات مصطلح (الألفاظ) (٦٨) . قال ابن فلاح اليمني : « وانّما سميت الحروف ألفاظاً ، لأنها تحدث بسبب رمي النَّفَس الممدود من قبل الطبيعة للهواء الجاري من الرئة ، المعتمد على أجزاء الفم واللهوات وقصبة الرئة ، إذِ اللفظ في اللغة عبارة عن الرمي » (٦٩) .

فتسمية الأصوات اللغوية ألفاظاً ، أمر مرتبط بالعملية التي تجري للنفس في جهاز النطق ، والتي تؤدي الى رميه خارج الفم ، على شكل موجات صوتية ، يلتقطها جهاز السمع ، ومن ثَمَّ يقوم الذهن بتفسيرها على وَفْق ما استقر فيه من اقتران ذلك اللفظ بما دلّ عليه من معنى .

والاصوات اعني كل الاصوات من المسموعات ، فهي ماهية محسوسة مدركة (٧٠) ، ومنفذها الى مركز الإدراك هو السمع ، فهو كما يقول ابن خلدون ، (ابو الملكات اللسانية) (٧١) ، وعليه الاعتماد في إدراك الأصوات اللغوية وغيرها ، وكلما اعتاد الإنسان سماع الأصوات ، قويت قدرته على التلفظ بها ومن هنا وجدنا تعلم اللغات قد ارتبط بالسماع أشدّ ارتباط ، لأنه هو السبيل القويم الذي يَسَّرَ للانسان إتقان اللغة ، ومكنه من

(٦٨) اللسان (لفظ) .
(٦٩) المغني لابن فلاح م ١٤/٢ .
(٧٠) التفسير الكبير ٢٩/١ .
(٧١) المقدمة ٥٤٦ .

التحدث بها ، ولا سيما اذا كان ذلك السماع في مرحلة مبكرة من مراحل عمره .

والانسان قد يستطيع أن يتعلم لغة من اللغات عن طريق القراءة والمقابلة بين الفاظ لغته ، وألفاظ اللغة التي يريد أن يتعلمها ، ولكنه لايمكن أن ينطِق ألفاظ اللغة الجديدة النطقَ الصحيحَ مالم يسمعها ممن يجيد التحدث بها لأن الخط لايستطيع دائما أن يصور الألفاظ التصوير الدقيق (٧٢) ، فضلاً عن أن هناك أصواتاً في لغة مّا ليست موجودة في لغة أخرى ، فكيف يتسنى للانسان معرفة نطق أصوات غير موجودة في لغته ، ما لم يسمعها من الناطقين بها ، او ممن اخذهم عنهم ، فمثلاً الصوت المرموز له بـ (ch) في الإنكليزية ، لايوجد صوت يقابله في العربية، فاذا جاء هذا الصوت في كلمة فهل يستطيع العربي أن ينطِق هذا اللفظَ ، ما لم يكن قد سمعه ممن يعرف نطقه ؟ وينطبق هذا الأمر على غير العربي ، ممن لا وجود في لغته لكثير من الأصوات العربية ، كالضاد ، والظاء ، والقاف ، والخاء ، والطاء ، كيف يستطيع أن ينطق هذه الأصوات النطق الصحيح ما لم يكن قد سمعها من أهلها ، أو من ذوى الخبِرة والدراية بطرق نطقها ؟ .

والإنسان يمتلك قدرة عظيمة على محاكاة الاصوات مهما كان نوعها لأن الله وهب له آلات نطق قادرة على صياغة أصوات متباينة ومتنوعة ، بسبب تباين مخارج النطق عنده ، وتنوعها ، بخلاف غيره من الحيوانات التي غالباً ما تكون أصواتها « رتيبة » ومحدودة وغير معتمدة على مخارج أو مقاطع كثيرة (٤) ، وإن جاءت أصواتها مختلفة باختلاف نوع الحيوان ، فعُواء الذئب غير زئير الأسد ، ونُباح الكلب غير مُواء القط ، وصهيل الفرس غير نهيق الحِمار .

---

(٧٢) البيان والتبيين ١/٣٤ .
(٧٣) الحيوان ١/٢١٣ .
(٧٤) المغني لابن فلاح م٢٠/١١ .

ومخارج الصوت عند الحيوان محدودة ، ولهذا جاءت أصواته محدودة أيضاً ، وتنوعها لا يرقى في أي حال من الأحوال الى تنوع أصوات الإنسان ، والمنصت الى أي حيوان وهو يصوت قد لا يسمع أكثر من نمطين ، أو ثلاثة انماط من الأصوات تتردد منه ، مشكلة مقاطع متشابهة ، تتكرر « برتابة » متصلة ، وهي لاتخلو في غالب الأمر من أصوات تشبه أصوات المد : الألف ، والياء ، والواو .

وأصوات أفراد أي نوع من أنواع الحيوان لاتختلف باختلاف البيئات ، أو الأصقاع التي يعيش فيها ذلك الحيوان ، فعُواء الذئب هو هو في أي مكان من الدنيا وكذلك مُواء القط ، أو نباح الكلب أو صهيل الخيل ، هذا حكم عام يخضع له الحيوان بأنواعه المختلفة ، وليس من السهل التمييز بين صوت حيوان وصوت حيوان آخرَ من نوعه ، أما صوت الإنسان ، فيختلف من فرد الى فرد آخر ، فلكل إنسان نغمة صوتية تميّزه من صوت الآخرين وليس من الصعب علينا أن نميّز صوت أي إنسان من بين أصوات الآخرين اذا ما سبق لنا أن ألفْنا صوته ، ومن هنا صرنا قادرين أن نعرف الأشخاص عند سماع أصواتهم ، وإن كانوا في منأى عنا ومعْزِل عن اعيننا ومشاهدتنا .

وهناك عوامل كثيرة تتصل بهذا التمايز(٧٥) ، مثل الجنس والمهنة والبيئة والثقافة ، فصوت الرجل يختلف عن صوت المرأة وصوت البدوي أو الريفي يختلف عن صوت الحضري . وهناك عوامل خلقية ، تؤثر أيضاً في اختلاف الأصوات بين أفراد الجنس البشري . فقد يخضع اثنان لبيئة معيشية وثقافية واحدة ، الا أننا نجد اختلافاً ظاهراً بينهما في نبَرات الصوت ونغماته ، فقد نرى — مثلاً — توأمين متشابهين تماماً ، ولانفرق بينهما الا بنبرات الصوت ونغماته .

(٧٥) انظر علم اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي ١٦١٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٨ ، ٣١٢ .

وكما كان لكلّ فرد من أفراد البشر في وجه عام نغمة صوتية تميزه من غيره ، كان أيضاً لكل قوم نغمة تميزهم من غيرهم من الأقوام ، وهذا التمايز لا يقتصر على الذين يتكلمون لغات مختلفة ، بل يشمل كذلك أولئك الذين يتكلمون لغة واحدة (٧٦) ، فالعرب مثلاً امة واحدة ويجمعهم لسان واحد ، الا أن لكل شعب منهم لحناً خاصاً ، يتضح من حديث ابنائه ، ويجرى على ألسنة علمتهم وخاصتهم ، فللعراقي لحن يختلف عن لحن المصري ، وكل منهما يختلف في لحنه عن لحن أبناء الشام ، او أبناء المغرب العربي ، بل نجد هذا الاختلاف بيّناً عند ابناء الشعب الواحد ، الخاضعين لأساليب حيوية متقاربة ، والمتأثرين بعوامل ثقافية موحدة فلكل صقع أو إقليم لحن خاص ينفرد به أبناؤه ، بل ربما كان اختلاف اللحن مشاهداً بين أبناء المدن المتقاربة ، التي لاتفصل بينها الامسافات قليلة ، وقد تدعو الفروق الاجتماعية أو الثقافية أوالانحدارالطبقي أو القبلي أو الإقليمي الى اختلاف اللحن والنغمة بين أبناء المدينة الواحدة .

والنغمة الصوتية التي يطبع عليها الإنسان تبقى عالقة به ومهيمنة على لسانه ، فان تكلم لغة غير لغته شابَ كلامَه شيء من لحنه الذي درج عليه وليس من الصعب علينا ان نميز – مثلاً – غير العربي اذا تكلم العربية من العربي الفُحّ ، وان تفاصح بها ، وحاكى اهلها في طرائق كلامهم وحذا حذوهم في إخراج أصواتهم . وصاغ حديثه على وفق قواعدهم وأساليبهم . ونزه لسانه من لحن القول وخطئه . اذ تبقى في حديثه نغمة بعيدة عن العربية ، تشير الى لسانه الأصلي الذي كان يتكلم به(٧٦) .

(٧٦) البيان والتبيين ١/٧٩ .

والانسان قد يستطيع أن يكتب مايشاء بلغة هي غير لغته ، ويكون مجيداً في ذلك أيما اجادة ، ولكنه اذا تحدث بتلك اللغة صعب عليه ذلك ، وشانَ لسانَهُ شيء من لغته التي نشأ عليها ، وقديماً قيل عن سيبويه ، إن قلمه أبلغُ من لسانه ، وأنه مات وفي لسانه لُكْنَة من أثر العجمة ، ولكنه ترك لنا كتاباً عظيماً ضم قوانين العربية وأصولها الكلية والجزئية . وكان كتابه هذا مثار الإعجاب والإكبار من لدن القدماء والمحدثين . وقد وصفه اسلافنا بأنه قرآن النحو (٧٧) .

فاللغة اذن أصوات منطوقة قبل أن تكون خطوطاً مكتوبة ، وهذه الأصوات تعتمد على مخارج مختلفة ينقطع عندها النفس ، فينطلق عند ذاك الصوت ، وباختلاف المخارج تختلف الأصوات(٧٨) ، وقد تتفق مجموعة من الأصوات بمخرج عام واحد ، الا أنها تختلف من حيث الصفة (٧٩) ، وهذا الاختلاف في الصفة هو الذي جعل الأصوات من حيث الكمية العددية تزيد على مخارج النطق عند الإنسان .

وقد استقرى علماء اللغة مخارج الأصوات العربية ، فذهب جمهورهم الى أنها ستة عشر مخرجاً (٨٠) ، ابتداءاً من الحلق وانتهاءاً بالشفتين ، وتشترك الخياشيم في مخرج النون والميم الساكنتين ، لما فيهما من غُنّة(٨١)، وإن كان الأصل في مخرجهما أن النون من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا ، ومخرج الميم من بين الشفتين (٨٢) .

---

(٧٧) مراتب النحويين واللغويين ٨٨ ، انباه الرواة على انباه النحاة ٣٤٩/٢ ، معجم الادباء ٨٢/٦ ، وفيات الاعيان ٤٦٣/٣ .
(٧٨) الكتاب ٤٠٥/٢ .
(٧٩) الكتاب ٤٠٥/٢ ، سر صناعة الاعراب ٥٢/١ .
(٨٠) الكتاب ٤٠٥/٢ .
(٨١) الكتاب ٤٠٥/٢ ، سر صناعة الاعراب ٥٣/١ .
(٨٢) الكتاب ٤٠٥/٢ ، سر صناعة الاعراب ٥٢/١ .

وتتم معرفة مخرج الصوت بأن ينطق به ساكناً مسبوقاً بهمزة الوصل . وأول من نص على هذه الطريقة في اعتبار مخارج الاصوات ، هو الخليل ابن أحمد الفراهيدي (٨٣) . وقد عقد ابن جنّي مبحثاً يتصل بذوق أصوات الحروف . اعتمد فيه على ما أورده الخليل في معرفة النطق بالصوت على حقيقته ، حيث قال : « وسبيلك اذا أردت اعتبار صدى الحرف أن تأتي به ساكناً لامتحركاً ، لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه . . ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله ، لأن الساكن لايمكن الابتداء به (٨٤) .

وقد أمكن حصر الأصوات العربية ، فكانت تسعة وعشرين صوتاً (٨٥) ، وقد جُعِلَ بإزاء كل صوت من هذه الأصوات حرف من حروف الهجاء العربي (٨٦) . ومن هنا كانت حروف الهجاء تسعة وعشرين حرفاً ، تمثل الألفبائية العربية ، الا أن أبا العباس المبرد المتوفّى سنة (٢٨٥ هـ) عدها ثمانية وعشرين حرفاً (٨٧) ، اذ أسقط الهمزة ، فلم يعدها حرفاً مستقلاً ، بل جعلها مع الألف حرفاً واحداً ، وقد عوّل في ذلك على أن الهمزة صورتها غير مستقرة ، فهي لاتثبت على صورة واحدة ، وفاته أن الأصل هو اللفظ لا الرسم والخط . قال ابن جني ، (فأما إخراج أبي العباس الهمزة من جملة الحروف . واحتجاجه في ذلك أنها لاتثبت صورتها ، فليس بشيء ، وذلك أن جميع هذه الحروف إنما وجب إثباتها واعتدادها ، لما كانت في اللفظ الذي هو قبل الخط ، والهمزة أيضاً موجودة في اللفظ »(٨٨) مثلها في ذلك مثل سائر الحروف العربية التي تأتلف منها مفردات الكلام .

(٨٣) الكتاب ٢/٦١ ــ ٦٢ . (٨٤) سر صناعة الاعراب ١/٧ .
(٨٥) الكتاب ٢/٤٠٤ . سر صناعة الاعراب ١/٤٦ .
(٨٦) كتاب الحروف ١٣٧ .
(٨٧) سر صناعة الاعراب ١/٤٦ . (٨٨) سر صناعة الاعراب ١/٤٨ .

وعلماء العربية يعبرون عن الاصوات بالحروف . وهذا شائع في عباراتهم ، يستوى في ذلك قدماؤهم ومتأخروهم (٨٩) . وقد جعلوا لكل حرف من حروف هجائهم اسماً ، مبدوءاً بالصوت الذي يعبر عنه بذلك الحرف (٩٠) ، مثل ، الصاد ، والسين ، والميم ، والدال ، والعين ، والقاف ، ولم يخرجوا عن هذا السبيل الا في تسمية صوتين هما : الهمزة والألف . وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار تسمية اكثر العلماء الهمزة ألفاً ، ولا سيما قدماؤهم (٩١) ، تكون تسميتهم هذه قد ابتدأت بالصوت الذي يدلّ عليه هذا الحرف (٩٢) . ويبقى الألف وحدَه ، لا يرتبط بالصوت الذي يرمز له . ولعل سبب ذلك هو أن هذا الصوت لايمكن أن يلفظ به في ابتداء الكلام (٩٣) ، بخلاف جميع الأصوات الأخرى ، ولهذا لما ارادوا أن يلفظوا صوته ، ضمن أصوات هجائهم ، جعلوا قبله صوت اللام ، ورسموه في خطهم متصلاً به ، على نحو ما يأتي ، (لا) (٩٤) ، وما زال صوت معلمي الكتاتيب يرنّ في آذاننا ، وهم يرددون حروف الهجاء لطلبتهم ، فاذا ما وصلوا الى هذا الحرف قالوا ، (لام ألف لا » ، ويبدو أن هذه الطريقة في لفظ الألف قديمة ، قِدَمَ تعلم الهجاء العربي (٩٥) .

وهناك علماء فرقوا بين الصوت والحرف ، منهم ابن جني ، فقد عقد لذلك مبحثاً في « سر صناعة الاعراب » ، سمّاهُ : « فرق مابين الصوت

(٨٩) الكتاب ٢/٤٠٤ ، ٤٠٥ ، الموجز في النحو ١٦٦ ، ١٦٧ ، شرح مختصر التصريف العزي ٩٦ ، ٩٧ .
(٩٠) سر صناعة الاعراب ١/٤٧ .
(٩١) الكتاب ٢/٣ ، ٤ ، ٥ ، ١٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ .
(٩٢) سر صناعة الاعراب ١/٤٧ .
(٩٣) المصدر نفسه ١/٤٨ .
(٩٤) المصدر نفسه ١/٤٩ .
(٩٥) المصدر نفسه ١/٤٨ .

والحرف » (٩٦) ، ذكر فيه : « أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلاً ، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته » (٩٧) فيسمى الصوت اينما عرض له المقطع حرفاً ، « وتختلف أجراس الحروف بحَسَب اختلاف مقاطعها ، واذا تفطنت لذلك وجدته على ما ذكرته لك ، ألا ترى أنك تبتدىء الصوت من أقصى حلقك ، ثم تبلغ به أي المقاطع شئت ، فتجد له جرساً ما ، فان انتقلت عنه راجعاً منه ، أو متجاوزاً له ، ثم قطعت ، احسست عند ذاك صدى غير الصدى الأول ، وذاك نحو : الكاف ، فانك اذا قطعت بها سمعت هنا صدى مّا ، فان رجعت الى القاف سمعت غيره ، وإن جزت الى الجيم سمعت غير ذينك الأولين » (٩٨) .

والناظر في كلام ابن سينا في « اسباب حدوث الحروف » يجده أيضاً يفرق بين الحرف والصوت . فالحرف عنده هو ، « هيئة للصوت عارضة له ، يتميز بها عن صوت آخر مثله في الحدة والثقل تميزاً في المسموع »(٩٩) ، والذي يفعل الحرف عنده . هو « حال التموج من جهة الهيئات التي يستفيدها من المخارج والمحابس في مسلكه – أى :مسلك التموج – » (١٠٠) أما الصوت فهو عنده « كيفية تحدث من تموج الهواء المنضغط بين قارع ومقروع »(١٠١) . والقارع هو . النفس الخارج على هيئة نموج (١٠٢) ، والمقروع هو المقطع أو المحبس الذي الذي ينتهي عنده النفس ، فيحدث الصوت الخاص المتميز بصفاته من سائر أصوات النطق الأخرى ، والذي يفعل الصوت « هو نفس التموج » (١٠٣) . وهذا التفريق

(٩٦) المصدر نفسه ١/٦ . (٩٧) المصدر نفسه .
(٩٨) سر صناعة الاعراب ١/٦ . (٩٩) اسباب حدوث الحروف ١٠ .
(١٠٠) المصدر نفسه . (١٠١) التفسير الكبير ١/٢٩ .
(١٠٢) اسباب حدوث الحروف ١٠ . (١٠٣) المصدر نفسه .

بين الصـــوت والحرف ، تفـــريق سديد . فالحرف هو الصـــوت المعتمد على المخارج والمحابس ، فهو صـــوت خاص لاينطبق إلاّ على الأصوات الصادرة من آلات النطق(١٠٤) ، التي هي الحروف . أما الصوت فهو عام يشمل الحروف وغيرها من الأصوات .

وأسباب اختلاف الحروف ، لا تعود الى اختلاف الصوت ؛ لأن الصوت في أصله ساذَج ، وهو تموج غير مخالف بعضه بعضاً في الحقيقة ، وهذا الصوت ، يمثل المادة الساذجة للحرف ، (١٠٥) ، وتمثل الحروف الهيئة العارضة لـه(١٠٦)، التي تلتقطهـا الأسماع ، أمـا الذي يؤدي الى اختلاف الحرف ، فهو اختلاف آلاتهـا ، فلولا اختلاف آلات الحروف ، لما اختلفت الحروف ، إذْ لا شيءَ هناك يمكن أن يؤدي الى اختلافها الاّ مادتها وآلاتها، فاذا كانت مادتها واحدة ، وهي الصوت الذي يسببه التموج كانت آلة النطق هي وحدَها سبب اختلاف الحروف (١٠٧) ، ونعني بآلات النطق مواضع تكـون الحروف في الحلق واللسان والاسنان والنطع وأصول الثنايا والشفة ، وهي المسماة بالمخارج(١٠٨).

واللغة – اي لغة كانت – انما تتمثل بالمفردات أولاً ، ثم بالتراكيب ثانياً ، والتركيب هي محط الفائدة(١٠٩) التي يتوخاها المتكلم ، ويتطلبها المتلقي ، والكلام الذي هو الجزء المتحدث به من اللغة ، لايمكن أن يقع في أي لغة الا على هيئة مركبة من أكثر من مفرد لفظاً أو تقديراً ، لأن الكلام المفيد فائدة تامة يحسن السكوت عليها لابد أن يكون متشملاً على إسناد، الإسناد تركيب مؤلف من ركنين ، هما المسند والمسند اليه . وهذا قانون عام ، تخضع له كل اللغات

(١٠٤) المغني لابن فلاح م ١٣/٢ .
(١٠٥) شرح الشافية للرضي الاستراباذى ٢٥٠/٣ .
(١٠٦) اسباب حدوث الحروف ١٠ .
(١٠٧) شرح الشافية للرضي الاستراباذى ٢٥١/٣ .
(١٠٨) المصدر نفسه .
(١٠٩) نهاية الايجاز ودراية الاعجاز ٧١ .

الانسانية . وقد نص عليه سيبويه حيث قال : « هذا باب المسند والمسند اليه وهما ما لا يستغني واحد منهما عن الآخر ، ولايجد المتكلم منه بُداً »(١١٠آ) .

والغرض الأصلي من وضع المفردات بإزاء المعاني الدالّة عليها – كما يقول الرازي – هو ان يُضم بعضها الى بعض لتحصل منها الفوائد المركبة (١١١) . فذكر المفرد وحدَه منفصلاً عن التركيب ، لا يؤدى فائدة ذات بال يمكن أن يضيفها المتلقي الى ما تحصل في ذهنه من معرفة تتصل بالمفرد .

فالمفرد خارج التركيب اشبه مايكون بلبنه ملقاة خارج البناء ، فهي مجرد لبنة لا تشكل قيمة يعبأ بها ، لان قيمتها الحقيقية إنما تكون اذا أخذت موضعاً مّا من البناء . وكذلك اللفظ المفرد خارج التركيب ، لا يؤدي قيمة دلالية زائدة على قيمته المقترنة به في أصل الوضع ، والتي تميزه من غيره من المفردات . فلفظة (كتاب) – مثلا – لها مدلول مستقر في ذهن المتكلم والمتلقي ، يميزها من غيرها من المفردات ، ولا تؤدي غرضاً زائداً على هذا المدلول فيما لو صوّت بها المتحدث وحدها ، أما اذا جاءت في تركيب تام يحسن السكوت عليه . فانها تؤدي دلالة أخرى تكتسبها من وظيفتها النحوية في التركيب . وذلك مثل : الفاعلية والمفعولية والإضافة والوصفية والحالية ، وغير ذلك من المعاني التي تعتور المفردات في أثناء التركيب . وهذه المعاني كلها مبنية على علاقة المفرد بما ضم اليه من مفردات اخرى . وهذه العلاقة ، يجب أن تقوم على مناسبة معنوية مشتركة يرتبط بها المفرد مع غيره من المفردات ارتباطاً حقيقياً او مجازياً . فإن لم تتوفر هذه المناسبة ، امتنع تركيب المفردات ، فمثلا الفعل « يقرأ » . لا يمكن أن يركب تركيب إسنادٍ الا مع اسم تصح القراءة منه .

---

(١١٠) الكتاب ١/٧ .
(١١١) نهاية الايجاز ودراية الاعجاز ٧١ . وانظر دلائل الاعجاز ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .

وقد لمح سيبويه الى وجوب توفر العلاقة المعنوية بين المفردات التي يتألف منها التركيب ، اذ وصف نمطاً من تأليف الكلام بأنه محال ، لأن فيه لفظين ينقض أحدهما الاخر . جاء ذلك في باب من أبواب كتابه القيم ، سماه « باب الاستقامة من الكلام والإحالة » ، قال فيه : « وأما المحال » ، فان تنقض أول كلامك بآخره ، فتقول : أتيتك غداً ، وسآتيك أمس » (١١٢) ؛ لأن الفعل « أتى » ماضٍ ، فلا يصح أن يقترن بلفظة « غد » الدالة على الاستقبال ، والفعل « آتي » مصروف للاستقبال ، لاتصاله بالسين ، فلا يصح أن يأتلف في التركيب مع لفظة « أمسِ » الدالة على المضي .

فلابد اذن من وجود علاقة منطقية بين مفردات أي تركيب ليكون كلاماً تاما ، يعبر به المتكلم عن معنى من المعاني التي تختلج في ذهنه أو تتردد في نفسه .

والمعاني التي تدل على أغراض المتكلم ، لا تكون مفردة ابداً ، بل هي معانٍ مركبة . وقد ترتب على هذا أن يكون التعبير عنها إنما يتم بالألفاظ المركبة . ومن هنا امتنع أن يقع المفرد في الكلام مجرداً من التركيب حقيقة وتقديراً .

وربما عُبِّر عن المعنى المركب بلفظ ظاهره أنه مفرد ، وهو في حقيقة الأمر لفظ مركب ، وذلك لأن المتكلم قد يضمر جزءاً من الكلام ، اعتماداً على أن المتلقى يدرك أن في الحديث شيئاً مضمراً ، لم يظهره المتحدث ، ايجازاً منه واتساعاً ، وقد شاع مثل هذا الاضمار في أبواب متفرقة من الكلام ، مثل : النداء ، والأمر ، والتحذير ، والجواب .

فاللغة — أي لغة كانت — إنما هي تراكيب مؤلفة من مفردات ضُمّ بعضها الى بعض ، على شكل قوالب لفظية ، تتحكم بها قوانين ونظم نحوية

(١١٢) الكتاب ١/٨ .

ولغوية وأسلوبية ، تواضع عليها أهل كل لغة ، وأخذها اللاحق منهم عن السابق بطريق التلقي والمحاكاة .

واللغة مرتبطة بالمعاني التي يحس بها الإنسان ويدركها ، وهذه المعاني إنما تقع بادىء ذي بدء مفردةً ، وبعد أن تستقر في الذهن يطرأ عليها التركيب . ولما كانت الالفاظ تابعة للمعاني ، لأنها قوالبها (١١٣) ، كان وضع الألفاظ المفردة سابقاً لوضع الألفاظ المركبة .

فالمفرد سابق للمركب ، سواء أكان هذا المفرد معنى أم كان لفظاً ، وذلك لأن المفرد بسيط ، والبسيط سابق للمركب في حكم العقل والمنطق (١١٤)

ويسمي علماء العربية المفرد « كلمة » ، وهي كل لفظ موضوع بازاء معنى مستقل تواضع عليه أهل اللغة ، فكل كلمة لفظ ، ولكن ليس كل لفظ كلمة (١١٥) ؛ لأن هناك ألفاظاً لا معاني لها ، سمّاها علماء العربية الألفاظ المهملة (١١٦) ، ومثلوا لها بلفظة « ديز » التي هي مقلوب لفظة « زيد » . ومثلها كل لفظ لا يدل على معنى من المعاني المدركة والمستقرة في ذهن الناطقين باللغة .

والكلمة المفردة . هي الأساس الذي قامت عليه اللغات جميعاً ، وعليها بنَى علماء اللغة معاجمهم . ومن لم يدرك معاني الكلمات المفردة ، لا يستطيع أن يدرك فحوى الكلام ومدلوله تمام الإدراك . وقد يُعين السياق على معرفة معاني قسم من الكلمات المفردة . الا أن الأصل هو أن يلم المتحدث بأي لغة بمعاني الكلمات المفردة ، قبل أن يكلف نفسه التحدث بتلك اللغة . وكلما ازدادت معرفة المتكلم بمعاني المفردات وازداد محفوظه منها ، ازدادت قدرته على التعبير عما يدركه من معانٍ او يحس به من أفكار .

---

(١١٣) المقولات ٧٨ .
(١١٤) الحروف ٦٤ ، ٧٣ ، وانظر التفسير الكبير ١٠/١ .
(١١٥) المغني لابن فلاح م ٢٢/٢ . (١١٦) المغني لابن فلاح م ٢١/٢ .

والكلمة المفردة في العربية وغيرها من اللغات ، تتألف من نوعين من الأصوات ، مصوتة وصامتة (١١٧) ، وتنحصر الأصوات المصوتة في العربية بالواو والياء والالف ، وما يتفرع منها من أصوات قصيرة سماها علماء العربية « الحركات » ، وهي : الضمة والكسرة والفتحة . أما الأصوات الصامتة ، فتشمل سائر الأصوات العربية عدا الاصوات المصوتة المذكورة آنفاً ، ويسمى هذا النمط من الأصوات « الاصوات الساكنة » (١١٨) ايضاً . ويطلق عليها كذلك « الحروف الصحيحة » . وهذا المصطلح الأخير ، هو المصطلح الشائع في تسمية هذه الأصوات عند علماء العربية من نحاة وصرفيين ولغويين (١١٩) .

والأصوات الصامتة هي أكثر عدداً من المصوتات ، وعليها يقوم بناء أصول المفردات العربية (١٢٠) .

ويطلق علماء العربية على « الواو والياء والالف » أحرف العلة واللين والمد ، ولكل تسمية من هذه التسميات سبب . فالعلة لأنها ضعيفة معرضة للحذف والتغيير (٢١) ، وسميت أحرف لِين ، لأنها لينة ، وليس فيها صلابة الأصوات الصامتة (١٢٢) ، وسميت أحرف مَدّ ، لأن الصوت يمد بها ، قال سيبويه : « وحروف اللين هي حروف المَدّ التي يمد بها الصوت » (١٢٣)

ولا تسمى هذه الأصوات أصوات مَدّ ، الا اذا كانت ساكنة وقبلها حركة من جنسها ، وفي ضوء هذين القيدين ، تكون الألف دائماً صوت مدّ ،

(١١٧) التفسير الكبير ٢٩/١ ، ٤٨ .
(١١٨) علم اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي ٣٠٠ .
(١١٩) جمهرة اللغة ٧/١ ، سر صناعة الاعراب ٧١/١ .
(١٢٠) فقه اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي ١٧ ـ ٢٠ .
(١٢١) الخصائص ٢٩١/٢ ، شرح مختصر التصريف العزى ١٠٥ .
(١٢٢) شرح مختصر التصريف العزى ١٠٦ .
(١٢٣) الكتاب ١١/٢ .

لأن « الألف لابد لها من حرف قبلها مفتوح » (١٢٤) . ولكونها لا تقبل الحركة (١٢٥) ابداً ، فهي ساكنة لزوماً واضطراراً ، ومن هنا سماها سيبويه حرفا ميتا (١٢٦) .

اما الواو والياء ، فقد يأتيان حرفي مَدّ ، وقد لا يأتيان . فان جاءا ساكنين ومسبوقين بحركة من جنسهما ، فهما حرفا مدّ ، أما اذا جاءا متحركين أو مسبوقين بسكون او حركة ليست من جنسهما ، فلا يعدّان حرفي مدّ ، مثل الواو والياء في كل من : يوم ، وصوم ، وظبي ، ودلو ، وقِيَم (جمع قيمة) ، واستحوذ ، ورضي ، ووعد ، وقاوم ، وعور . ويكون حكم الواو والياء في مثل هذه الالفاظ حكم أيّ صوت صامت (١٢٧) « اي حرف صحيح » ، ويجرى عليهما الحكم النحوي او الصرفي الذي يجري على الاصوات الصامتة . ومن هنا سمى النحاة الأسماء المنتهية بالواو او الياء المسبوقين بسكون اسماءاً معتلة جارية مجرى الصحيح (١٢٨) ، ولهذا ، تظهر على أواخرها الحركات كما تظهر على آخر أي اسم منتهٍ بصوت صامت « أي : حرف صحيح » .

والاصوات التي تأتلف منها مفردات العربية لاتنحصر بالحروف الصامتة والمصوتة بل تشمل أيضاً الحركات . والحركات في حقيقة أمرها لا تعدو أن تكون نوعاً من أنواع المصوتات . فلا تختلف عن اصوات المد الأصلية ، الا بكونها أقصر منها . ومن هنا جاءت تسمية بعض الباحثين لها « أصوات مدّ قصيرة » (١٢٩) .

---

(١٢٤) المصدر نفسه ٢/٢٨٦ .
(١٢٥) المصدر نفسه ٢/٣٥٧ .
(١٢٦) المصدر نفسه ٢/٧٨ .
(١٢٧) المصدر نفسه ٢/٢٩٣ ، ٢٨٩ ، ٢٨١ .
(١٢٨) المصدر نفسه ٢/٥٧ ، ١٣٢ .
(١٢٩) انظر فقه اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي ١٩ .

وقد تنبه علماء اللغة الأوائل للعلاقة الصوتية بين الحركات وأحرف المد ، فنصوا على أن الحركات أبعاض أحرف المَدّ ، فالضمة بعض الواو ، والكسرة بعض الياء ، والفتحة بعض الالف (١٣٠) . والذي يدّل على أن الحركات أبعاض لهذه الاحرف – كما يقول ابن جِنّي – « أنك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه » (١٣١) .

وقد نقل ابن جِنّي عن بعض متقدمي النحاة أنه كان يسمي الضمة واواً صغيرة ، والكسرة ياءاً صغيرة ، والفتحة ألفاً صغيرة (١٣٢) . وما نقله ابن جني ، يشبه الى حد كبير ما اورده أبو علي في مسائله البغدادية ، حيث قال : « وهذا الذي يسميه أهل العربية حركة حقيقية انه حرف . فالفتحة كالألف ، والضمة كالواو ، والكسرة كالياء ، في أنهن حروف ، كما أنهن حروف ، الا أن الصوت بهن أقل من الصوت بالألف وأختيها ، وقلة الصوت بهن ليس يخرجهن عن أن يَكُنّ حروفا ، لأن من الحروف ما هو أكثر صوتاً من حروف ، كـ « الصاد » و « النون » الساكنة . فكما أن النون عندنا حرف وإن كان اقل صوتاً من الصاد ، كذلك يجب أن تكون هذه عندنا حروفاً ، وان كان الصوت بهن أقل من الصوت بما هن منه » (١٣٣) ، ثم قال : « فالمسمى حركة والحرف الذي معه ، هما في الحقيقة حركتان للناطق ، وكلّ واحد منهما حرف ، ويدلك على ما ذكرناه من هذا قيام كل واحد من الحرف والمسمى حركة مقام صاحبه » (١٣٤) .

فكل من الحركة والحرف صوت ، والصوت عرض . ولما كانت « الحركة لا توجد الا عند وجود الحرف ، صارت كأنها قد حلته ، وصار هو كأنه

---

(١٣٠) الكتاب ٣١٥/٢ .
(١٣١) سر صناعة الاعراب ٢٠/١ .
(١٣٢) المصدر نفسه .
(١٣٣) المسائل البغدادية ٤٨٧ – ٤٨٨ .
(١٣٤) المسائل البغدادية ٤٨٨ .

قد تضمنها ، تجوزا لا حقيقة » (١٣٥) ، لأن العرض لا يحل العرض على الحقيقة .

وتردد المصوتات – حروفاً كانت أو حركات – في الكلام ، أكثر من تردد غيرهن من الأصوات ، وقد تنبه سيبويه الى هذه الحقيقة اللغوية ، فقال : « فأما الأحرف الثلاثة – يعني : الواو ، والياء ، والالف – فإنهن يكثرن في كل موضع ، ولا يخلو منهن حرف ، او من بعضهن . ، ... هن لكل مد ، ومنهن كل حركة » (١٣٧) .

وأحسب ان تردد هذه الاصوات الكثير في المفردات ، مُتَأتٍّ من وظيفتها الصوتية المتمثلة في ربط أجزاء المفرد . فبناء المفرد في أصله قائم على الاصوات الصامتة التي يسميها النحاة والصرفيون « الحروف الصحيحة » ، وهي في الأصل أصوات ساكنة ، والحركة زائدة عليها ، وتوالي السواكن يؤدي الى الثقل ، بل ربما كان ذلك متعذراً ، ولاسيما اذا ما كثرت السواكن المتوالية ، فأحدثت هذه الأصوات اضطراراً ، لتربط اجزاء المفرد ، بعضها ببعض . ولعل الخليل بن أحمد الفراهيدي هو أول من تنبه الى هذه الحقيقة اللغوية ، التي لا تصدق على العربية وحدها ، بل تشمل سائر اللغات ، فقد نقل عنه سيبويه انه قال : « الفتحة والكسرة والضمة زوائد ، وهن يلحقن الحرف ليوصل الى التكلم به ، والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه ، فالفتحة من الألف ، والكسرة من الياء ، والضمة من الواو » (١٣٨) .

وقد جاءت قيمة المصوتات : « الحركات وحروف المدّ » من كونها أصواتاً لينة . وليونتها هذه هي التي أهلتها للقيام بوظيفة ربط الأصوات

(١٣٥) سر صناعة الاعراب ٣٧ .
(١٣٦) سر صناعة الاعراب ٣٦ .
(١٣٧) الكتاب ٢/٣٤٩ .
(١٣٨) الكتاب ٢/٣١٥ .

الصامتة ولولاها ما استطاع الإنسان أن يربط بين الأصوات المنطوقة ليؤلف المفردات الدالة على المعاني التي يريد أن يعبّر عنها .

فوظيفة المصوتات – ولا سيما الحركات – اذن لا تنحصر فيما تؤديه من دلالة نحوية في التركيب بل تتجاوز ذلك لتقوم بوظيفة صوتية أخرى تتصل بربط الاصوات الصامتة لتأتلف منها المفردات قبل التركيب .

وليس قيام المصوتات بربط المفردات أمراً اختصت به العربية وحدها بل هو أمر عام ؛ يشمل – فيما أحسب – كل اللغات الإنسانية . فوجود هذه الأصوات في الالفاظ المنطوقة بمثابة قانون عام يخضع له كل لفظ منطوق سواء أكان ذلك اللفظ دالا على معنى أم كان لفظاً مهملاً لا معنى له فليس هناك لفظ في الدنيا خالٍ من صوت أو أكثر من هذه الأصوات اللينة التي يطلق عليها في العربية الحركات وحروف العلة والتي تقابل في اللغات الأوربية ما يطلق عليه بالإنكليزية مصطلح (Vowels) والدي يشمل الأصوات المرموز لها بهذه الرموز الخطية (A. E. I. O.U.) وما يتصل بها من علامات توضح طريقة نطق هذه الاصوات مما هو شائع في المعاجم التي تعنى بمفردات اللغات الاوربية .

وربط أجزاء المفردات اللغوية في العربية لا يقتصر على الحركات وأصوات المد الطويلة بل يسهم فيه السكون أيضاً وهو في حقيقة أمره انتفاء الحركة . ولهذا سمي سكونا ليقابل الحركة في حقيقتها اللغوية ومعناها الاصطلاحي . وقد تنبه قُطْرُب النحويّ (تلميذ سيبويه) الى قيمة كل من الحركة والسكون في ربط أجزاء الكلام فذهب الى أن حركات الإعراب لا تفيد معنى نحوياً في الكلام وانما جيء بها ليعتدل الكلام لأن الاسم في حال الوقف يلزمه السكون ، فلو جعلوا وصله بالسكون ايضاً لكان يلزمه الاسكان في الوقف والوصل وكانوا يبطئون عند الإدراج ، فلما وصلوا وأمنكهم

التحريك جعلوا التحريك معاقباً للإسكان ليعتدل الكلام ، ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ومتحركين وساكن ولم يجمعوا بين ساكنين في حشو الكلمة ولا في حشو بيت ، ولا بين أربعة أحرف لانهم في اجتماع الساكنين يبطئون ، وفي كثرة الحروف المتحركة يستعجلون وتذهب المهلة في كلامهم ، فجعلوا الحركة عقب الاسكان » (١٣٩) .

فالغرض من الحركات عند قُطْرُب اذن ، هو تيسير النطق من حيث الخفة والثقل ، وليس الغرض منها إبانة المعاني النحوية ، كما هو مذهب جمهور النحاة (١٤٠) .

ولما كان ابتداء الكلام انما هو ابتداء خروج الأصوات من آلة النطق ، تحتم أن يكون الصوت المنطلق في بَدْءِ الكلام صوتاً متحركاً ، ولمّا كان السكوت انقطاعاً عن الكلام ، لزم أن يكون الجزء الأخير من المفرد ، الذي يوقف عليه صوتاً ساكناً ، لاحركة فيه . ومن هنا وجدنا جميع المفردات العربية تبدأ بصوت متحرك ووجدنا أيضاً أن العرب لاتقف إلا على صوت ساكن . وقد تنبه ابن جنّي – رحمه الله – الى هذه الحقيقة الاستقرائية ، فقال : « ألا ترى أن الابتداء لمّا كان أخذاً في القول ، لم يكن الحرف المبدوء به الامتحركاً ، ولما كان الانتهاء اخذاً في السكوت لم يكن الحرف الموقوف عليه الاساكناً »(١٤١) .

والسكون الذي هو انتفاء الحركة ، لا ينحصر في أواخر الكلمات ، بل يأتي ايضاً داخل بناء الكلمة . وربما كان ذلك حكما لازماً ، تيسيراً للنطق ، لأن توالي الأصوات المتحركة في اللفظ الواحد ، أو ما كان في

(١٣٩) الايضاح في علل النحو ٧٠ – ٧١ .
(١٤٠) انظر الاصول في النحو ٤٥/١ ، الايضاح في علل النحو ٦٩ ، الخصائص ٣٥/١ .
(١٤١) الخصائص ٥/١ .

عداد اللفظ الواحد ، قد يؤدي الى الثقل في النطق . ومن هنا وجدنا العرب يفرّون من توالي الحركات (١٤٢) ، فيسكنون بعضا من أصوات الكلمة اذا كثرت حركاتها . وقد يأتي ذلك على شكل قانون صرفي عام تخضع له بنية قسم من مفردات اللغة ، فقد جاءت – مثلا – فاء الأفعال الماضية الثلاثية والرباعية المجردة « فعل – فعلل » متحركة ، ولكن العرب عند تصريف هذين الفعلين الى المضارع ، يعمدون الى تسكين « فاء » الثلاثي أما الرباعي ، فيبقون (فاءه) متحركة ، استصحاباً لأصلها في الماضي . وسرُّ هذا يكمن في أنهم لو ابقوا (فاء) الثلاثي متحركة على أصلها في الماضي ، ثم زادوا عليه حرف المضارعة ، وهو متحرك اضطراراً ، لاجتمعت في المضارع أربعة أصوات متحركة ، وهذا ثقيل عليهم في النطم ، فسكنوا « فاءه» فراراً من الثقل ، اما مضارع الرباعي، فقد أبقوا « فاءه » متحركة على أصلها في الماضي ، لأن إبقاءها متحركة لايؤدى الى اجتماع أربعة أصوات متحركة متتابعة ، وذلك لأن « عين » الفعل الرباعي ساكنة في الماضي في أصل الوضع ، وسكونها هذاهو الذي يسر النطق بهذا النمط من الأفعال في الماضي ، وهو الذي حافظ على إبقاء حركة « الفاء » في المضارع ، لانه لم تجتمع فيه أربعة أصوات متحركة ، لا في الماضي ، ولا في المضارع .

والأصل في آخر الماضي الثلاثي انه مبني على الفتح ، ولكن اذا اتصل به ضمير رفع متحرك مثل « تاء الفاعل » بني على السكون ، وذلك لئلا تتوالى أربعة أصوات متحركة في لفظ صار كأنه كلمة واحدة(١٤٣) ، لشدة اتصال الفعل بالفاعل (١٤٤) ، ولو أبقي الفعل على أصله مبنياً على

(١٤٢) الكتاب ٣٣٥/٢ .
(١٤٣) الاصول في النحو ٤٩/١ – ٥٠ .
(١٤٤) اسرار العربية ٧٩ – ٨٣ .

الحركة ، لأدّى ذلك الى الثقل في النطق ، وقد حملوا غير الثلاثي المتصل بضمير رفع متحرك على الثلاثي ، وان لم تجتمع فيه أربعة أصوات متحركة متوالية ، وذلك طرداً للباب ، ويتمثل هذا الامر ، في الرباعي والسداسي ، نحو : دحرجت واستخرجت .

وهذه التغيرات الصوتية ، التي تتصل بالحركة والسكون ، تدل على عظيم عناية العرب بألفاظهم ، وحرصهم على انسجام أصوات أبنيتهم ، وشدة رغبتهم في توخي الخفة في النطق والفرار من الثقل . ولكن هذا ، لايعني في أي حال من الأحوال أنهم غير قادرين على نطق الأصوات الثيقلة أو القوية فهم يمتلكون جهازاً صوتياً يؤهلهم للنطق بأي صوت أو لفظ مَهْما كان ثقيلا وذلك بسبب طول الدُّرْبَة على التلفظ بأصوات قوية مثل العين والحاء والخاء والغين التي خلت منها أومنها أو من بعضها كثير من اللغات الإنسانية .

فاللغة اذن هي مفردات وتراكيب موضوعة بإزاء معان لها دلالة مستقرة في الذهن وخارجه . وهذه الدلالة مفردة أو مركبة والكلام الذي هو الجزء المستعمل من اللغة مركب من ألفاظ مفردة متآلفة فيما بينها على وَفْقِ أساليب ، غالباً ماتكون مستقرة على شكل نظام لغوي موروث ، والمفردات التي تشكل أجزاء الكلام هي أصوات مترابطة على شكل وحدات مستقلة ، كل وحدة موضوعة للدلالة على معنى مستقل . وهذه الوحدات التي هي الكلمات مؤلفة من نوعين من الأصوات : اصوات صامتة ، وأصوات مصوتة . وتشكل الأصوات الصامتة عمدة كل كلمة ، وتسهم الأصوات المصوتة في ربط تلك الأصوات الصامتة ، التي هي في الأصل أصوات ساكنة ، وتتمثل الأصوات المصوتة في العربية بالحركات وأحرف المدّ واللين ، وتشمل الأصوات الصامتة سائر حروف الهجاء الأخرى .

فحقيقة اللغة في مفرداتها وتراكيبها ، أنها أصوات معتمدة على مخارج ، موزعة على جهاز النطق . وقد وهب الله للانسان القدرة على تأليف هذه هذه الأصوات ، ليجعل منها أداة يعبر بها عن أغراضه ، وما أصدق ابنَ جِنّي عندما حدّ اللغة فقال : « انها أصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم »(١٤٥) .

★ ★ ★

(١٤٥) الخصائص ١/٣٣ .